

محاضرة رقم:1

لوي ألتوسير: (1918- 1990)

تمثل موجة التحولات الفلسفية في المرحلة المعاصرة، واحدة من المعالم التي رسمت صورة المشهد الثقافي الذي عرف بروز تيارات فكرية جديدة، منها الفلسفة البنيوية والتي كان "ألتوسير" فيها واحد من الوجوه البارزة حين حاول تقديم رؤية جديدة حول مختلف الاشكالات التي خلفتها الماركسية والغوص في ثنايا مواقفها الفلسفية، والقاء الضوء على القضايا التي كانت محل جدل كبير في الأوساط الثقافية بين الوجوديين والشخصانيين حول المسائل الأيديولوجية والمادية والمذهبية، إذا كان ألتوسير حاول تقديم قراءة جديدة للماركسية، فما طبيعة النقد الذي باشره على ثقافة عصره؟

لقد حاول "ألتوسير" في سياق الحديث عن الماركسية، تقديم قراءة دقيقة تسعى بدورها إلى تحقيق النضج وعرض جميع الأفكار الماركسية في مسار واضح، مؤكداً في ذلك على التطورات التي حصلت لها، وذلك من أجل القضاء على التفسير الضيق الذي تعرضت له، واخراج هذه التصورات من وحل الجمود الفكري والتكلس المذهبي الذي وصفت به المرحلة الستالينية التي تبنت الفلسفة الماركسية إلى فضاء الفهم السليم لها.

لم يخف "ألتوسير" حماسه الفكري من أجل احتضان الماركسية واسقاط كل المغالطات التي لحقت بها حين ساد اعتقاد لدى بعض الفلاسفة، بأن الدراسات التي تناولت من قبل حول ماركس، قد انصرفت عن المبادئ الحقيقية للماركسية، لذلك ناضل هذا الفيلسوف إلى جانب الحزب الشيوعي من أجل توطيد أسس نظرية غير قمعية للدولة الاشتراكية، هذا التوجه جعله مولعاً بالماركسية وتقديم انتقادات لاذعة إلى الماركسيين الذين لم يتمكنوا من تحصيل فهم عميق للنصوص التي خلفتها الماركسية.

ومن هذه الزاوية، لم يتوان "ألتوسير" في مواجهة نظرياتهم التي فتحت أبواباً واسعة من أجل مباشرة القمع والاستبداد على الشعوب، مستدلاً في ذلك ما قامت به الشيوعية السوفياتية - حسب رأيه- في تقييد وخنق حرية التعبير

كما فعلت الفاشية والماركسية في فرنسا والماركسية الانسانية التي تبنتها النزعة الوجودية السارترية.

لهذا رفض "التوسير" التعريف الستاليني والانساني للماركسية على ضوء أن التحليلات الاقتصادية والسياسية لماركس، لا يمكن ارجاعها إلى المخطوطات الاقتصادية والفلسفية، على اعتبار أن هذه التأويلات والتفسيرات، تتجه بطبيعتها إلى خدمة الطبقة البورجوازية، ومن هنا كانت دعوته صريحة إلى وضع فصل تام بين ماركسية كارل ماركس والهيكلية، ومن ثمة أصبحت مشروعية التسليم بأن البنية الفكرية، هي نتاج الأحوال الاقتصادية، وانعكاساً لعملية الانتاج، وهذا ما يفتح الأبواب الفلسفية لبروز الظروف السياسية والأيدولوجيا التي تعتبر فضاء ملائم لممارسة الأفكار الماركسية واحتضانها.

لذلك كانت قناعة "التوسير" الفلسفية، تقوده إلى تبني استراتيجية تحدد الموقف المبدئي القائم على الشك في النصوص الماركسية، وهذا ما يماثل إلى حد بعيد الشك الذي قام به "هسرل" في رفض التقاليد والأفكار المسبقة التي ارتبطت بها الدراسات السابقة، ومن هنا جابه بالرفض كل القراءات السطحية والساذجة للنصوص الماركسية، لكن ما ينبغي القيام به، هو العودة إلى استثمار هذه النصوص قصد تحديد الغايات التي ترمي إليها والعمل على الكشف عن ماهيتها وعلمانيتها، وهذا المسعى، يفضي في النهاية إلى الإيمان بأن هذه المحاولات تبين مدى الحاجة إلى إعادة بناء الفلسفة الماركسية ومعرفة ما تتطوي عليه من حقائق وجب التنقيب عن محتواها الفكري، مما يمنح هذا التصور مقدمة أساسية لإعطاء قراءة علمية صحيحة لها، بعيدة عن التشويه والمغالطات التي وقعت فيها العديد من الفلسفات .

في هذا السياق، رأى "التوسير" أن تبني المنهج البنيوي سيصبح أكثر من ضرورة، لأنه سيؤدي إلى ضرورة التمييز بين النصوص العلمية والنصوص الأيدولوجية، وذلك من أجل رفع الغموض الذي وقع فيه الماركسيون، وهو الدافع الذي جعلهم يحدون عن تقديم تفسيرات حقيقية للفلسفة الماركسية.

استفاض "ألتوسير" في تحليل الأيديولوجيا، فهي ليست مجرد وعي زائف كما ظن الماركسيون التقليديون، بل هي بنية في التصورات عن الحياة والذات التي تشكل جزءاً صميمياً من أي منظومة إجتماعية ولا يمكن لأي مجتمع أن يستمر في الحياة دون أيديولوجيا، فالإنسان في النهاية حيوان أيديولوجي". فالأيديولوجيا توجد دائماً داخل جهاز (أي داخل مؤسسة أو بنية ما وفي قلب ممارسة العملية أو ممارساته، هذا الوجود للأيديولوجيا وجود مادي.

المجتمعات الإنسانية تفرز الأيديولوجيا وكأنها العنصر والمناخ الضروريان لتنفسها، أي لحياتها التاريخية. "ليست الأيديولوجيا إذا شذوذاً أو نشازاً عارضاً في التاريخ إنما بنية ضرورية وأساسية للحياة التاريخية والاعتراف بوجود الأيديولوجيا وضرورتها، هو ما يمكن من التحكم فيها ومن تحويلها إلى أداة لفعل واعٍ في التاريخ.

ومن هذا التحليل بدأ "ألتوسير" مولعاً بتحرير الفلسفة الماركسية من بقايا الجدل الهيجلي من أجل تكييف أفكارها وفق نظرة واقعية تتماشى مع المسعى البنيوي والاستجابة لمتطلبات العصر، وتقديم رؤية أعمق للحياة الاجتماعية والاقتصادية، هذا ما يدعو إلى إعادة فهم المصطلحات الماركسية فهماً صحيحاً بعيداً عن التصورات المثالية التي رسختها من قبل الهيجلية، والإيمان بفكرة التطور والتغير التاريخي والأيديولوجي والتشبث بالرؤية العلمية والابستمولوجية في أحداث الثورة الفلسفية التي تقضي على الدوغمائية الفكرية.

المصادر والمراجع:

s.karsz.theorie et politique, louis Althusser ; ed, fayard, 1982.

Louis Althusser, pour marx, ed, maspero, paris, 1965.

Louis Althusser, lire le capital, paris, 1968.

لوي التوسير، الفلسفة وفلسفة العلماء العفوية، ترجمة رضا الزواري، منشورات الدار البيضاء المغرب، 1982.

عبد السلام بن عبد العالي، الميتافيزيقا، العلم والأيدولوجيا، دار الطليعة بيروت لبنان، 1993.
عمر مهيب، من النسق إلى الذات الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007.